الحياة في بيروت

على عهد الصليبيين

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٣ (تتمة)

كيف كان يقضي الصليبيون ايام السلم والطمأنينة في بيروتهم الجميلة ، تحت سماء فنيقية اللطيفة ؟ اذ ان حياتهم لم تكن كلها منقسمة بين ثقل السلاح ووزن الدنانير .

كانت المراكب التجارية تستفيد من ايام الخريف الاخيرة فتشرع اشرعتها للهواء الشرقي ، او هواء البرّ ، فتغتنم الفرصة لتعود مسرعةً الى مرافئ الغرب . لان مرفأ بيروت كان اصغر واقلّ معدات من ان يقوم بوقاية الخلايا الكبيرة ابان الشتاء . اما الامراء والاعيان فكانوا ينصرفون الى الملاهي ، وقد خفقت الامطار الاولى وطأة الحرّ ، فبدأ فصل اللذة والسرور .

ولم يكن لبنان حينذاك تعرّى من ردائه الاخضر . من الحق ان غاباته لم تكن على كثافتها المذكورة في زمن تلّ العمارنة في القرن الخامس عشر قبل المسيح ؛ اذ كانت تمتع حتى مرور الاشعة الشمسية ؛ ولكنها كانت وافرة واسعة المساحة . واننا نعتقد ان تلك الاحراج الارزية اللاجئة اليوم في اعالي البارود كانت تنحدر حتى مقاطعات الغرب الاعلى ، فتحيط بالاقطاعات اللبنانية المذكورة اسماؤها في فرامانات آل إيبلن الى امراء الغرب[1] . كما ان غابة الصنوبر كانت تنبسط على ابواب بيروت حتى مرتفعات الجبل ، على قول الادريسي وغليوم الصوري . وقد بيّنتُ سابقاً كيف عرف الافرنج ان يستغلّوا هذه الثروة الشجرية ، حتى جاء بعدهم المماليك والاتراك فاهملوها وعملوا على ملاشاتها[2] .

---

١) راجع بحثنا المعنوَن *Topographie franque du Liban*, dans les *Mélanges* I, 250

٢) اطلب كتابنا *La Syrie*, II, 7

وكان يعيش في هذه الغابات كثير من الحيوانات المتنوّعة كالدببة ، والخنازير البرّية ، والضباع ، والهررة البرّية ، والذئاب ، وقد يكون فيها حمار الوحش ، وحتى الاسد ، ان صدقنا صالح بن يحيى[1] . واننا نرى في مذكرات الامير السوري أسامة بن منقذ عدّة اشارات الى صيد الاسد[2] . على أننا نعتقد ان هذا الامير يفخر بانتصاره على اسود كثيرة لم يرَها حقيقةً ، فيسرد عدداً من الحوادث المضحكة[3] . ولعلّه قام بذلك ليُنسي الناس ما كانوا يتناقلونه من هجائه لجبنه وخوفه ، اذ كان حاكم بيروت ، على عهد صلاح الدين ، فهرب مع اسرته ورجاله ، قبل ان يصل اليها الفرنجة . ولعلّ الاسود التي صادفها كانت خاصةً من رجال الفرنجة ! فهو لا يتهاود في شتمهم ، ولكنه لا ينكر عليهم صفة واحدة ، على الاقل ، وهي الشجاعة .

على ان ما يرويه أسامة من هذه الاخبار يدلنا على طريقة تنظيم الصيد والقنص في عصر الصليبيين . فكانوا ، اذا خرجوا الى هذه الملاهي ، استصحبوا اصحاب البزاة ، ورجال الشباك ، ورماة النشاب ، وحملة الحراب والفؤوس . فينظرون نوع الطرائد ويطلقون عليها تارة البزاة والصقور ، وطوراً كلاب الصيد ، واحياناً الفهود المدرّبة[4] .

وقد كانت رغبة امراء الصليبيين في الصيد تعادل رغبتهم في اقتناء الخيول المطهّمة حتى انهم كانوا يمثّلون دائماً فرساناً بخيلهم واسلحتهم في اختام فرماناتهم[5] وكان الصيد بواسطة البازي من ملاهي السراة والامراء . وقد ذكر صالح البزاة بين الهدايا القيّمة التي كان يرسلها امراء باروت الى عمّالهم من امراء الغرب[6] .

---

١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت المذكور ، ص ١١٢ – واطلب ابن بطوطة : رحلته ١ : ١٨٥

٢) اسامة بن مُنقذ (طبعة Derenbourg) ص ٥٦ ، ٥٧

٣) خصوصاً في الصفحات ٧١ ، ٨٠ . . .

٤) أسامة (طبعة Derenbourg) ص ٩٣ ، ١٤٦ ، ١٥٦

٥) صالح : الكتاب المذكور ، ص ١١٢ – واطلب Rey, *Colonies*, 28

٦) صالح : ص ٨٧

على انني اجهل هل استعملوا الفهد المدرّب في صيدهم . بيد ان أسامة يذكر ان احد فرسان الفرنجة كان قد درّب نمرًا وروّضه حتى كان يتبعه كالكلب .

وهكذا كان يسير امراء بيروت مع عمّالهم اللبنانيين الامراء الى رحلات عديدة طويلة في سبيل الصيد والقنص . وكان امير بيروت ، في احيان اخرى ، يدعو امراء الجبل الى الحفلات في جنائنه وبساتينه ، ولاسيما عندما كان يزوّج احد اولاده . وهي دعوات رسمية اكثر منها عن اخلاص وسلامة طوية ، كما يظهر من بعض المحاولات التي قام بها الامراء احياناً في سبيل خيانة وليّهم ، ومن اقتصاص هذا منهم بشدّة وصرامة .

كان امراء الغرب يعتقدون انهم يجدون في الحيلة والمراوغة حلًا لموقفهم الدقيق . كانوا واقعين بين سادة الاسلام السنيّ وامراء الفرنجة ، وهم لا يحبون الاولين ولا الآخرين ، انما يهمّهم امرٌ واحد ، وهو العمل على ضمانة استقلالهم الداخلي . وكيف يكون ذلك الا بان يرضوا سادتهم وجيرانهم من الفرنجة ، دون ان يغيظوا المسلمين الذين يمكنهم ، بين ليلة وضحاها ، ان ينتصروا على الفرنجة ويحلّوا محلّهم . فعلى امراء الغرب اذًا ان يظلّوا على علاقات حسنة مع دمشق والقاهرة ، وان يقبلوا من امير بيروت ، لا الدعوات الى الصيد والاعياد فحسب ، بل الهدايا ، والاقطاعات . بل انهم يطلبون الاقطاعات من امير سايت او صيدا ، ايضاً[1] . فيكونون عمّال الفرنجة ، دون ان يحنقوا المسلمين . هذه السياسة المزدوجة « اللاعبة على الحبلين » ، كما يقال ، قادتهم احياناً الى التضحية بواجباتهم تجاه سادتهم الفرنجة بل الى خيانة هؤلاء . فلم يمتنعوا قطّ عن مراسلة امراء دمشق سرًا ، فاطلاعهم على حركات الفرنجة وحالة عساكرهم . حتى لقد يمكننا نعت تلك المراسلات بالجاسوسية المنظمة . على ان امراء الفرنجة من جهتهم كانوا قد نظّموا مصلحة اخرى تطلعهم على تجسّس امراء الغرب انفسهم . وقد جروا طويلًا على هذه الحالة حتى اذا تأكدوا سوء نية عمّالهم المذكورين

---

١) مالح : ص ٨٣

عزموا على البطش بهم بطريقة حاسمة تحدث دوياً وتأثيراً في البلاد . وذلك ان امراء الغرب انشأوا حصناً في سرحمور قرب الشويفات . فكان عملهم خطراً على امارة بيروت في زمن كان فيه الصليبيون يراقبون بشدّة السلطان نور الدين ، فحفظوها لهم .

وكان من الصليبيين من يزهم اسامة عن لبدهم بتقدمهم في الشرق ، حتى انهم « تبلدوا »[1] ، فاتخذوا عادات الشرقيين ، وعاشوا على اتفاق مع جيرانهم المسلمين ، وكان منهم امراء بيروت . على ان هؤلاء لم يمكنهم غض الطرف عن مراوغة عمالهم امراء الغرب . فعزموا على اتقاء الحيلة بالحيلة . ولم يكن من شك في الخيانة ، وهي تستحق الموت في الشريعة الاقطاعية النافذة في حكومات سورية اللاتينية . ويجب ان لا نسهو عن امر مهم . وهو ان امراء الغرب اللبنانيين بقبولهم اقطاعات الصليبيين اصبحوا عمالهم ورجالهم واشهدوا الله على امانتهم لهم . فهم ان خانوا لزمهم العقاب ، والعقاب الشديد في نظر امراء بيروت . على ان الصعوبة كانت في استدراج امراء الغرب واخراجهم من ملجأهم الحصين ، كي يتمكن الصليبيون من هدمه في غيابهم . فضلاً عن انه كان من متطلبات الاحوال ان يكون العقاب شديداً سريعاً يؤثر في سكان الجبل ومجاوريهم . فتخيل امراء بيروت طريقة موافقة أثرت دون شك في الشرقيين ، اعرف الناس بتقدير القوة الرشيدة .

ومن حسن الاتفاق ان امير بيروت كان يهم بتزويج احد ابنائه . فدعا جميع الامراء المجاورين كآل لمبرياك (Lembriac) سادة جبّاه (جبيل) ، وسادة سايت (صيدا) وذوي اقطاعاتهم . ولم يكن من اللائق ان ينسى امراء الغرب . ولا يخفى ان اعراس الصليبيين كانت على غاية من الابهة والفخامة ، لا نعرف ذلك من وصف صالح بن يحيى ، فانه تجنب ، وسنرى لماذا ، ان يفيض في تفاصيل هذا العرس . على اننا نجد في رحلة ابن جبير ، المعاصر لهذه الاحداث ، وصفاً لعرس افرنجي حضره في صور ، وقد لفت نظره خاصة مشهد

---

١) اسامة : ص ١٠٣ ، في اسفلها

العروسة البارزة «في ابهى زيّ وافخر لباس تسحب اذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم وعلى رأسها عصابة ذهب قد حُفّت بشبكة ذهب منسوجة وعلى لبتها مثل ذلك منتظم وهي رافلة في حليها وحُلاها تمشي فترًا في فتر مشيَ الحمامة، او سير الغمامة ... والمسلمون وسائر النصارى من النظّار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ...» وزاد الكاتب: وهم «لا ينكرون عليهم ذلك» ... اما هو فقد استعاذ بالله «من فتنة المناظر»[1]

ولم تكن عروسة صور، على ما يظهر، الا ابنة احد السراة، او اغنياء التجار. فكيف بعرس يقيمه بلاط امير بادوت؟

وقد اسرع الامراء اللبنانيون لتلبية دعوة متبوعهم. وكان لديهم السلاح الفاخر، والخيول المطهمة. ولم يكونوا ليتراجعوا عن التفاخر بها امام سادة بيروت وسكانها، فيتنافسون واولئك الفرسان لابسي الخُوذ وحاملي الريش، الذين يدعوهم صالح بن يحيى، بشيء من التفخيم، «ملوك الفرنج». وهاكم ما يقوله في تفصيل ما آلت اليه هذه الحفلة:

«فلما كان وقت العرس نزل الثلاثة (اي الامراء اولاد كرامة بن مُجلّي) الى بيروت، فانزلهم صاحبها في بستان ظاهر البلد، واعتذر اليهم لايوائهم خارج البلد لكثرة ما اجتمع فيه من طوائف الفرنج لوليمة العرس، وزاد في اكرامهم. ولما دخل الليل سألهم الحضور الى مجلس خاصّ قد هُيّئ لهم وللملوك الفرنج. فدخل الثلاثة الى القلعة ومعهم نفرٌ قليل. فكان آخر العهد بهم. وركب صاحب بيروت بمن عنده من جموع الفرنج في صبيحة تلك الليلة، وطلعوا الى الحصن، وكان خالياً من الرجال. فهرب من كان به... فنهبت الفرنج الحصنَ وهدموه والقوا حجارته في الوادي ولم يبقوا له اثرًا واحرقوا القرى واسروا من تخلّف عن الهرب.»[2]

ولا حاجة الى القول ان مأساة هذا العرس كان لها الاثر البعيد في تاريخ

---

١) ابن جبير: الرحلة ٣٠٥-٣٠٦

٢) صالح بن يحيى: ص ٧٤-٧٥

امراء الغرب، فنزعت من فكر خلفائهم كل رغبة في بناء الحصون والمعاقل، على ان الصليبيين لم يكونوا ثقيلي الوطأة في حكمهم، اذ ان ابن جبير لا يتمالك ان يستعيذ بالله اذ يرى مسلمي سورية يرحلون الى مناطق الفرنجة ليخلصوا من ظلم امرائهم المسلمين.

وقد كان لامراء بيروت وسكانها اعياد واحتفالات دورية لا تنخضب بالدماء كالحفلة السابقة، يذكر منها صالح بن يحيى عيداً كان يحتفل به النصارى والمسلمون على السواء، فيخرجون الى نهر بيروت، ويدعونه «عيد النهر». ويزيد الكاتب انه «من البدع»[1]. اما موقع ذاك العيد فكان في الثالث والعشرين من شهر نيسان، وهو الموافق لعيد القديس جرجس. ولا يخفى ان قرب جسر بيروت يقع معبد اسلامي معروف بالخضر، وهو في الاصل كنيسة قديمة على اسم القديس جرجس. ونحن نعرف ان بيروت من المدن التي اختارتها الاسطورة موقعاً لعراك القديس والتنين. وقد راقت هذه الحادثة المؤرخ المذكور فلم يتراجع عن ذكرها بالتفصيل. وأثرت كذلك في تسمية الخليج الصغير الواقع قرب النهر فدعي «خليج مار جرجس». ويقول صالح: «والنصارى تصور هذه الكائنة في سائر كنائس بلادهم قلّ ما يخلو منها كنيسة.»[1] ومن السهل ان نتحقق كم كان شعباً ذاك العيد بتهافت المسلمين على الاحتفال به مع النصارى، وعلى السرور والاغتباط بعودة الربيع. ولا غرابة في ان يكون امراء الصليبيين كانوا يشتركون في ذلك ايضاً، وقد اتخذوا القديس جرجس، صاحب العيد، شفيعاً لهم. وقد يكون من جملة ملاهيهم القيام بالاعيب الفروسية[2] من سباق ولعب جريد، وهذا النوع كان مرغوباً فيه كل الرغبة في حلقات الصليبيين بشهادة كثير من مؤرخي ذاك العصر.

يظهر من كل ما تقدّم ان فرنجة بيروت لم يكونوا من النساك ولا الزهاد. كانوا يحبّون الصيد والالاعيب الحربية. وكانت جميع فرماناتهم

---

١) صالح بن يحيى: ص١٦

٢) اسامة بن منقذ: ١: ١٠٢

التجارية تذكر دائماً اعطاء حمامات الى التجار من افراد الطوارئ . ولرب من ينسبهم ، في طمأنينتهم تحت سماء فنيقية ، الى نسيان بيت المقدس وتخليص القبر المقدس . على انه نسيان ظاهري فقط ، ولقد كان بامكانهم ان يردوا على ذلك بان يشرحوا دعاء الصليبيين الجميل : « الله يشاء ذلك ! » على طريقة الاخ تروفيم في رواية « الاميرة البعيدة » لروستان ، اذ يقول [1] :

ان ما يشاء الله ليس بذاك التخليص فحسب .
—اعتقدوا انه لو اهتز فقط —
بطرد جماعة الكفرة من القبر ،
لكان ملاك واحد قام بذلك بضربة واحدة من جناحيه ،
ولكن لا . ان ما شاء الله هو ان يترع
جميع اولئك العاثين في البطالة ، اولئك المتكبرين ، الكسالى ،
ذوي الاثانية الفاحشة ، والتهاون الاغبر ،
ليرميهم وسط الحراب يمزجون ، ويفخرون ،
مثلين بخسرة التضحية ، راغبين في الموت بيدًا ،
في ذاك التجرد الذي كانوا جميعاً بحاجة اليه .

***

لقد حاولت ، في ما تقدم ، ايجاد موقع القلعة الفرنجية الضخمة . فقلت ان سورها المزدوج ، المردف بالخندق ، كان يرتقي المرتفع فيمتد على القمة الصخرية المشرفة على المرفأ . ومن هذا المكان كان يُلقى النظر على اجمل مشاهد المدينة . وعندما وصلت الامارة الى جان دبيلن ، عمل على ترميم الصرح القديم ، وتوسيع نطاقه . فحوّله الى قصر من اجمل القصور لا في سورية فحسب ، بل « في العالم » اجمع ، كما تقول « ملاحم القبرصيين » بشيء من السذاجة . وكان من اعجب ما في هذا القصر الملكي زخرف القاعة الكبرى قاعة الاعياد

(1) E. Rostand, *la Princesse lointaine* I, sc. 2.

والاحتفالات . وان لدينا وصفاً لهذه القاعة خطّه ويلبراند دولدنبورغ (Willbrand d'Oldenbourg) اذ مرّ في مدينتنا سنة ١٢١٢ ، قال :

« تُشرف هذه القاعة من جهةٍ على البحر ، ومن الاخرى على الجنان المحيطة بالمدينة وقد رصفت ارضها بالفسيفساء ممثّلةً ماءً قد هبّ عليه نسيمٌ خفيف فتجعّد، حتى ان الماشي في ارضها ليدهش اذ لا يرى اثر قدميه على الرمل المصوّر في الآخر . اما الجدران فمغطّاة ببلاط رخامي غاية في الجمال . واما السقف فمصوّر فيه شبه السماء . ومعلومٌ ان السوريين والعرب والروم من النوابغ في فنّ الزخرف . وفي الوسط بركة من الرخام المتعدّد الالوان بارزة في غاية الحسن ، وعجيب الملاسة . وفي منتصف البركة تنّين يظهر مفترساً حيوانات مصوّرة بالفسيفساء ، وينفخ في الهواء عموداً من الماء الصافي فيفيض في القاعة رطوبة لذيذة ، بفضل ما فيها ايضاً من النوافذ العالية المتعدّدة . »

ولا يزال لدينا حتى اليوم مثلٌ على اعمال سادة بيروت الصليبيين في هندسة البناء ، وهو كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان التي كثيراً ما اقام فيها الطقسيات اساقفة المدينة وكهنتها من اللاتين . وقد تحوّلت الكاتدرائية الى جامع ، وهي تدعى اليوم « المسجد العمري » ، ولا اعلم لماذا ؟ ولم يكن للصليبيين المكان الواسع ، ضمن ذاك السور الضيق ، لاقامة كاتدرائية فسيحة فاكتفوا بهذه . وقد درسها الاثري العالم السيد انلار ، وخصّ بها بحثاً دعاه « كاتدرائية القديس يوحنا البيروتية » وفيه يقول : « انها مثل جميل لكاتدرائية المستعمرات الصغيرة ، قليلة الاكلاف ، رشيقة ، متينة ، موافقة . تصميمها بسيط يحتوي على سوق متوسط يحيط به سوقان على الجانبين اقل منه ارتفاعاً ، ويتّصل الثلاثة بثلاث حنايا . » وان من شاء مزيد اطّلاع على هذا الاثر الجميل فعليه بزيارة الكاتدرائية نفسها .

اما ماذا حدث بهذه الكاتدرائية بعد خروج الصليبيين من بيروت ، وكيف تحوّلت الى جامع ، فمعلومات يطلعنا عليها صالح بن يحيى ، قال :

« لمّا قدّر الله بنزعها (بيروت) من يد الفرنج استقرّت كنيستهم جامعاً وكانت تُعرف عندهم بكنيسة مار يُحنّا . وكان بها صور فطلاها

المسلمون باطين ، وبقي الطين الى ايام الجـد[1] فبيّضه وازال عنه آثار تلك الصور .»[2]

وهناك كنيسة اخرى للفرنجة كان حظّها اسوأ من حظّ هذه الكنيسة . وكانت تقع «شرقي البلـدة داخل السور ، على قول صالح نفسه ، وتُعرف بكنيسة إفرّنسيسك . ويزعم الفرنج ان افرنسيسك هذا قـدّيس ظهر متأخرًا من مدة مئتي سنة مضت الى هـذا التاريخ ، وكانت هـذه الكنيسة كبيرة فجعلها السلف اسطبلًا . . . وهي في وقتنا هـذا[3] خراب بيت لبني الحمراء فنقلوا حجارتها الى مدوستهم .»[4]

هذا واننا لا نعرف شيئاً عن مصير كنيسة القديس جرجس خاصة الجنوية ، ولا عن مصير كنيسة القديس مرقس خاصة البندقة . ثم ان ميشيليه (Michelet) يذكر في جزيرة ، في بيروت ، ديرًا لرهبـان البريمونتري (Prémontrés)[5] . ونحن نذكر المطالع ان نتوز ، ناظم ملحمة ديونيزوس ، يدعو بيروت «مدينـة الجزر الجميلة» . اما كيف اختفت تلك الجزر واي اعصار ابتلعها فما لا نعرفه . ولا نعرف كذلك اثرًا آخر لديرة الفرنجة في امارة بيروت . فـان التامبليـة والاسبتالية لم يبنوا فيها واحدة من تلك القلاع المحصّنة التي عملت كثيرًا على الدفاع عن المملكة اللاتينية على ان الاسبتالية ، وهم فرسان رودس ومالطة بعد ذلك ، كان لهم في لبنـان عدد من القرى والمزارع اقطعهم اياهـا سادة باروت ، فكانوا يستغلّونها . وان الشهادات والفرمانات الحافظة اسماء هـذه الاماكن لمن اثمن الاسانيد لتاريخ لبنان وجغرافيته في القرون الوسطى[6] . وقـد كان المزار المهمّ الوحيد في جميع قيقية الفرنجية معبد سيدة طرطوس وهو من

---

١) اي جدّ المؤلف

٢) صالح بن يحيى : ص ٥٨–٥٩

٣) اي في اواسط القرن الخامس عشر

٤) صالح بن يحيى : ص ١٤١

٥) *Procès des Templiers* I, 647. Cité par Rohricht, ZDPV, X. 310.

٦) اطلب بحثنا *Topographie franque du Liban*, dans *Mélanges*.

افخم الآثار في هندسة الصليبيين.

***

بعد ان سقطت بيروت من يد امرائها الصليبيين ، لجأ هؤلاء الى جزيرة قبرص . على انهم لم يفقدوا الامل باسترجاع امارتهم . فسافروا على مراكب اللوزنيانيين ، واتوا ، منذ السنة ١٢٩٩ ، يرقبون المراكز ، ويدورون امام الشاطئ الفنيقي[1] . فتحققوا ما انزل المماليك باراضيهم من الخراب والدمار . وكان المنتصرون ، خوفاً من رجوع الفرنجة ، قد اسرعوا في هدم اسوار المدينة ، وذلك ابراج القلعة الضخمة ، وتحويل الكنائس الصليبية . حتى لم تبقَ ببيروت الا مجموعة من الخرائب يقيم في وسطها ، حول الاسواق ، وبالقرب من المرفأ الذي هجره تجار جنوى والبندقية الاغنياء ، بضع مئات من السكان. وكانوا يهربون لاجئين الى الجبل كلما ظهر شراع افرنجي في الافق البعيد[2] . اما « امارة باروت » فلم تبقَ سوى عنوان شرف ، ولقب مجد ، له مركزه في سلسلة كبار السراة من مملكة لوزينيان.

١) صالح بن يحيى ، ص : ١١٠ ، ١٩٠ ، ١٩١

٢) اطلب تاريخنا لسورية ٢ : ٣ وما بعدها.